المقاصد القرآنية والأمن الاقتصادي من خلال تفسير الطاهر بن عاشور دراسة تحليلية

إعداد

د/ محمد عزيز عبدالحكيم

الملخص:

قد فطن العلماء للمنحى المقصدي في القرآن، ففصلوا فيه القول وأجملوا، سواء كان ذلك أصالة أو تبعًا إلى أن تشكل لديهم علم مهم، له ملامحه ومعالمه، وهو علم" مقاصد سور القرآن". وهو العلم الذي يراد منه استنباط المعاني والأغراض الرئيسية والموضوعات الأساسية التي تدور عليها سورة معينة أو جزء منها. وقد يُعبِّر بتعبير أخر، مثل: روح السورة، مغزى السورة، عمود السورة أو غرض السورة، أو الوحدة الموضوعية، أو ما شابه. وتظهر أهمية هذا العلم من كونه وسيلة لتحقيق المراد من تنزيل هذا القرآن كله وهو تدبره والاهتداء بما حواه؛ وذلك لأن التدبر لا يكون إلا بعد فهم المعنى المراد من المتكلم، ومقصد كل سورة هو أصل معانيها الذي ترجع إليه. كما أن وقوف المفسِّر على مقاصد السور يسدد فكره ويحول دون الخطإ في تفسيرها؛ لأنه يتقيد في توجيه الآيات وَفقًا لهذا المقصد، وبيان ذلك أن مقصد كل سورة إنما يقف عليه المفسر بعد استقراء آياتها والتأمل العميق فيما تدل عليه من معان تحقق مراد الله تعالى من كلامه، وذلك بالنظر في فواتح السورة وخواتيمها، وسياق وسباق آياتها ولحاقها، وألفاظها. وممن عني بهذا الاتجاه في التفسير العلامة محمد بن الطاهر بن عاشور صاحب كتاب "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" المعروف اختصارًا بالتحرير والتنوير من التفسير.

Abstract

Scholars became aware of the objective approach in the Qur'an, and they elaborated and summarized it, whether authentically or consequentially, until they formed an important science, with its own features and characteristics, which is the science of "the purposes of the surahs of the Qur'an." It is the science that aims to deduce the meanings, main purposes, and basic topics on which a particular Surah or part of it revolves. It may be expressed in other terms, such as: the spirit of the Surah, the meaning of the Surah, the pillar of the Surah or the purpose of the Surah, thematic unity, or the like. The importance of this knowledge is evident from the fact that it is a means of achieving the purpose of revealing this entire Qur'an, which is to ponder it and be guided by what it contains. This is because contemplation cannot occur except after understanding the meaning intended by the speaker, and the purpose of each surah is the origin of its meanings to which it returns. Also, the commentator's consideration of the objectives of the surahs guides his thoughts and prevents error in interpreting them. Because he is restricted in directing the verses in accordance with this purpose, and the explanation for this is that the purpose of each surah is determined by the interpreter after extrapolating its verses and contemplating deeply the meanings they indicate in order to achieve what God Almighty intends from His words, and that is by looking at the beginnings and endings of the surah, the context and context of its verses and its adequacy, and its words. Among those who inspired me with this trend in interpretation is the scholar Muhammad bin Al-Tahir bin Ashour, the author of the book "Liberation of the True Meaning and Enlightenment of the New Mind from the Interpretation of the Glorious Book," known in short as "Liberation and Enlightenment from Interpretation."

المقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم أما بعد، فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، أما بعد.

فإن من أجل نعم الله علينا أن هدانا للإيمان، وشرّفنا بتلاوة القرآن، فأشرقت على ذوي الألباب بحمد الله أنواره، وبدت لأولي النهى عند التلاوة أسراره، وفاضت على الصادقين عند التدبّر والتأمّل بحاره، فسبحان من أنزل على عبده الكتاب، وجعله لأهل الفهم المتمسكين به من أعظم الأسباب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾ .[1]

وعند التأمل في سور الكتاب العزيز، آخذين سبيل التدبر لآياته بما تضمنته من أحكام وأخبار ومواعظ، نجد أنه اهتم بشكل رئيس بمقاصد شاملة، وتوجيهات جامعة، ولم يُعرج على تفاصيل الأحكام إلا في مواضع قليلة ومواطن محددة؛ وذلك أن القرآن كتاب كل زمان ومكان، فاقتضى المقام أن يكون خطابه متصف بالعموم والكلية، وبما هو إجمالي ومقصدي، ومن هنا جاءت كل سورة تبين مقصدًا رئيسًا، وهدفاً كليًّا تدور حوله السورة، يكون روحها ولبها وجوهرها.

أهداف الدراسة:

تستقيم هذه الدراسة من خلال الأمور التالية:

-الكشف عن أهمية علم مقاصد السور وبيان طرائق استنباطه وقواعد استخراجه.

-الكشف عن أهمية تفسير التحرير والتنوير والطرق الإصلاحية التي أبان عنها الطاهر بن عاشور.

١ سورة ص آية ٢٩.

المنهج المتبع في البحث:

اتبع الباحث في هذه الدراسة عدة مناهج؛ منها: المنهج التحليلي النقدي، والمنهج الوصفي، والمنهج الاستقرائي، وذلك كالآتي:

أ/المنهج التحليلي النقدي: والذي يظهر من خلاله تحليل العوامل التي من خلالها استقى الطاهر بن عاشور المقاصد القرآنية، ونقد تلك المقاصد على ضوء تلك العوامل، وهل تأثر الشيخ بأحد العلماء أو أثر فيه مذهبه الفقهي أو العقدي في المقاصد التي استنبطها من النصوص.

ب/ المنهج الوصفي: والذي يتناول توصيف المشكلات الأمنية التي أشار إليها القرآن الكريم توصيفًا عصريًّا.

ج/ المنهج الاستقرائي: ويبحث في استقراء المقاصد الواردة في تفسير التحرير والتنوير، ومحاولة استيفاء ما نقص منها في الكتاب وظهرت من خلال الاستقراء، وأظهر الاستقراء عن إفادتها في تحقيق الأمن.

خطة الدراسة:

- المبحث الأول: ماهية الأمن الاقتصادي
- المبحث الثاني: المقاصد القرآنية وطرائق الإنفاق
- المبحث الثالث: تأمين طرق التجارة -
- المبحث الرابع: المقاصد القرآنية وإدارة الأزمات -

المبحث الأول: ماهية الأمن الاقتصادي

الأمن الاقتصادي مركب إسنادي من كلمة " أمن" وسبق تعريفها؛ و" اقتصادي" نشرع في بيانها.

الاقتصاد: مصدر اقتصد:

قال ابن منظور: "قصد: الْقَصْدُ: اسْتِقَامَةُ الطَّرِيقِ. قَصَد يَقْصِدُ قَصْدًا، فَهُوَ قاصِد، وطريقٌ قَاصِدٌ: سَهْلٌ مُسْتَقِيمٌ. وسَفَرٌ قاصدٌ: سَهْلٌ قَرِيبٌ. وَفِي الْحَدِيثِ: "القَصدَ القصدَ تَبْلُغُوا".

أَي عَلَيْكُمْ بِالْقَصْدِ مِنَ الأَمور فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَهُوَ الْوَسَطُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، والقَصْد فِي الشَّيْءِ: خلافُ الإفراطِ وَهُوَ مَا بَيْنَ الإسراف وَالتَّقْتِيرِ. وَالْقَصْدُ فِي الْمَعِيشَةِ: أَن لَا يُسْرِفَ وَلَا يُقَتِّر، يُقَالُ: فُلَانٌ مُقْتَصِدٌ فِي النَّفَقَةِ وَقَدِ اقْتَصَدَ، وَاقْتَصَدَ فُلَانٌ فِي أَمره أَي اسْتَقَامَ، وَقَوْلُهُ: "وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ"؛ بَيْنَ الظَّالِمِ وَالسَّابِقِ. وَفِي الْحَدِيثِ: "مَا عالَ مُقْتَصِدٌ وَلَا يَعِيلُ"، أَي مَا افْتَقَرَ مَنْ لَا يُسْرِفُ فِي الإنفاقِ وَلَا يُقَتِّرُ"(١).

وفي معجم اللغة العربية المعاصرة: "قصد، اقتصدَ/ اقتصدَ في، يقتصد اقْتِصادًا، فهو مُقْتَصِد، والمفعول مُقتصَد، اقتصد الشَّخصُ بعضَ دخله: ادّخَره "يقتصد كُلَّ شهْرٍ مبلغًا من المال، اقتصد في النَّفقة/ اقتصد في معيشته: توسَّط بين الإفراط والتقتير، ضدّ أفرط، اقتصد في المصروفات/ استهلاك المياه.

اقْتِصاد [مفرد]:

١ – مصدر اقتصدَ/ اقتصدَ في.

٢ – علم يبحث في الإنتاج وفي توزيع الثّرْوة وطُرُق اسْتِهلاكها "أستاذ في الاقْتِصاد السِّياسيّ– الاقْتِصاد الرَّأسماليّ/ الاشتراكيّ/ الحرّ"

اللِّيبراليّة الاقتصاديَّة: نظريّة اقتصاديَّة تتبع سياسة عدم التدخُّل والسوق الحرّة وقاعدة الذهب.

• الاقتصاد السِّياسيّ: علم يهتمّ بدراسة القوانين التي تتحكَّم في عمليّة الإنتاج وتوزيع الوسائل التي يُشبع بها الإنسانُ حاجاته".(٢)

أما تعريف الأمن الاقتصادي

فهو: اتخاذ تدابير الحماية والضمان التي تؤهل الإنسان للحصول على احتياجاته الأساسية من المأكل والمسكن والملبس والعلاج وضمان الحد الأدنى لمستوى المعيشة.

وهذه التدابير الاقتصادية هي التي تخلق الأمان الاقتصادي للناس، الذي ينطوي على بُعد نفسي للإنسان إضافةً للبعد المادي الذي يوفره الأمن الاقتصادي.

(١) لسان العرب، ٣/ ٣٥٤.

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، ٣/ ١٨١٩.

وقدمت الأمم المتحدة تعريفًا جامعًا للأمن الاقتصادي وهو: "أن يملك المرء الوسائل المادية التي تمكنه من أن يحيا حياةً مستقرةً ومشبعةً ".

ويعرفه آخرون بأن يملك الفرد ما يكفي من المال لإشباع حاجاته الأساسية وهي: الغذاء والمسكن اللائق، والرعاية الصحية الأساسية والتعليم.[١]

هذا وقد عرفت اللجنة الدولية للصليب الأحمر مفهوم الأمن الاقتصادي بأنه عبارة عن "قدرة الأفراد والمجتمعات والأُسَر على تغطية حاجاتهم الأساسية من خلال الاستدامة، مع المحافظة على كرامتهم أثناء أداء ذلك".[٢]

وجديرٌ بالذكر بأن هذا التعريف يمكن أن يختلف جوهره وفقًا لحاجات البيئات المحيطة والأفراد، كما أن هناك حاجة للمحافظة على المعايير الثقافية المتصدرة فيها.

وفي ضوء ما سبق يمكننا تعريف الأمن الاقتصادي بأنه" مجموعة من القوانين والتدابير الواجب توفرها للمجتمع لضمان حصول أفراده على احتياجاتهم من مأكل وملبس ومأوى ودواء وتعليم ....إلخ، في حرية وكرامة".

المبحث الثاني: المقاصد القرآنية وطرائق الإنفاق

إن الدين الإسلامي الحنيف لهو دين الوسط؛ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[٣]، أي عدلًا خيارًا، والوسط عبارة عن منزلة بين طرفين، تتبع تلك المكانة من العقيدة الإسلامية الوسط؛ قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾[٤]، أي وسط بين الغلو والجفاء، و تلك العقيدة

---

١ أهمية الأمن الاقتصادى فى تحقيق السلام الاجتماعى، الدكتور صلاح زين الدين، أستاذ الاقتصاد والمالية العامة، رئيس قسم الاقتصاد التشريعات المالية، كلية الحقوق – جامعة طنطا، المؤتمر العلمى ،دور القانون فى تحقيق أمن واستقرار المجتمع ،7 – 8 أبريل ٢٠١٤، ص ٣.

٢ What is Economic Security?مقال تم نشره بتاريخ ١٨/ ٦ / ٢٠١٥، على موقع اللجنة الدولية للصليب الأحمر على الإنترنت على الرابط التالي: -https://www.icrc.org/en/document/introduction economic-security

٣ سورة البقرة، جزء من الآية ١٤٣.

٤ سورة آل عمران: جزء من الآية رقم ٦٤.

الغراء تترك أثرها في النفس الإنسانية بحيث تصاحب تلك الوسطية معتنق العقيدة الإسلامية ظاهرًا وباطنًا، وفي دائرة الإنفاق يكون إنفاقه قصدًا بين الإسراف والتقتير؛ قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ ﴾ [1] ، وعليه فإنا بصدد الحديث عن مُنْفِقٍ ومُنْفَقٍ عليه ونفقةٍ، تلك الثلاث هي التي يدور في فلكها المال، والخروج من دائرة الوسط إسرافًا وتقتيرًا في إحداها يُحدث خللًا في النظام المالي بحسب ترك سواء السبيل.

أما المُنْفِق؛ فقد أمر الله تعالى ألا يكون المال في يدِ سفيهٍ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ ﴾ النساء: ٥

قال الطاهر: والمقصود بيان الحال التي يمنع فيها السفيه من ماله، والحال التي يؤتى فيها ماله..... والسفهاء يجوز أن يراد به اليتامى، لأن الصغر هو حالة السفه الغالبة، فيكون مقابلًا لقوله: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ ﴾ [2]، لبيان الفرق بين الإيتاء بمعنى الحفظ والإيتاء بمعنى التمكين، ويكون العدول عن التعبير عنهم باليتامى إلى التعبير هنا بالسفهاء لبيان علة المنع. ويجوز أن يراد به مطلق من ثبت له السفه، سواء كان عن صغر أم عن اختلال تصرف، فتكون الآية قد تعرضت للحجر على السفيه الكبير استطرادًا للمناسبة، وهذا هو الأظهر لأنه أوفر معنى وأوسع تشريعًا.[3]

وفي مسألة الأوسع تشريعًا نرى أن النهي عن إيتاء السفيه المال فيه أمرٌ بأن يُدفع المال للرشيد الحكيم في تصرفاته، فليُتفطن لحال الناس عند تمكينهم من الأموال وإلا ذهبت سدىً، فكم دُفعت من أموال لبعض الأشخاص بزعم استثمارها وجني الأرباح منها بعد حينٍ، وأسفرت النتائج عن أوهامٍ وضياعٍ للمال لأنها دُفعت لمن لا يستحق الثقة، وهذا خللٌ في الأمن الاقتصادي.

١ سورة الفرقان: آية رقم ٦٧.

٢ سورة النساء: جزء من الآية رقم ٢.

٣ التحرير والتنوير ٤/٢٣٤.

أما من جهة النفقة؛ فقد قال تعالى:﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [1] ، قال الطاهر: ووجه النهي عن التبذير هو أن المال جعل عوضًا لاقتناء ما يحتاج إليه المرء في حياته من ضروريات وحاجيات وتحسينات، وكان نظام القصد في إنفاقه ضامن كفايته في غالب الأحوال، بحيث إذا أنفق في وجهه على ذلك الترتيب بين الضروري والحاجي والتحسيني أَمِنَ صاحبُه من الخصاصة فيما هو إليه أشد احتياجًا، فتجاوز هذا الحد فيه يسمى تبذيرًا بالنسبة إلى أصحاب الأموال ذات الكفاف، وأما أهل الوفر والثروة فلأن ذلك الوفر ءاتٍ من أبوابٍ اتسعت لأحد فضاقت على آخر لا محالة؛ لأن الأموال محدودة، فذلك الوفر يجب أن يكون محفوظًا لإقامة أود المعوزين وأهل الحاجة الذين يزداد عددهم بمقدار وفرة الأموال التي بأيدي أهل الوفر والجدة، فهو مرصود لإقامة مصالح العائلة والقبيلة وبالتالي مصالح الأمة.[2]

نعم القصد أمنٌ من الخصاصة، بهذه العبارة تتلخص نظرة الطاهر بن عاشور للمال، وهي نظرة صائبة خاصة إذا تم الاتفاق بين الشعوب على ذلك المبدأ تجاه حكوماتهم، وذلك قطعًا في مجال الضروريات والحاجيات؛ لأن التحسينيات لا تحققها كل الدول، وبالتالي لابد للدول أيضًا من الالتزام بذلك المبدأ، فتقتصد في نفقاتها لتحقيق ضروريات وحاجيات شعوبها ولا تستدين لتحقيق التحسينيات، نعم إن كان عند الدولة فائضٌ للتحسينيات فلا بأس بتوفيرها لشعوبها، أما إنفاق المال على التحسينيات مع وجود عجز في الضروريات والحاجيات فلا شك أنه خللٌ في الأمن الاقتصادي لا يوافق النهي عن التبذير.

كما أنا نرى أن ليست كل النفقة من النقود؛ بل يتوجب الأخذ بعين الاعتبار ما أودع الله تعالى للأمة من مقدرات لابد من حسن التصرف فيها، من ذلك مثلًا المعادن، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [3]، ومما يُخرج من الأرض المعادن، منه الصلب كالذهب والفضة، ومنه السائل كالنفط،

---

١ سورة الإسراء: جزء من الآية رقم ٢٦.

٢ التحرير والتنوير ١٥/٧٩.

٣ سورة البقرة: جزء من الآية رقم ٢٦٧.

قال الطاهر: والمراد بما أخرج من الأرض الزروع والثمار، فمنه ما يخرج بنفسه، ومنه ما يعالج بأسبابه كالسقي للشجر والزرع، ثم يخرجه الله بما أوجد من الأسباب العادية. وبعض المفسرين عد المعادن داخلة في مما أخرجنا لكم من الأرض. وتجب على المعدن الزكاة عند مالك إذا بلغ مقدار النصاب، وفيه ربع العشر. وهو من الأموال المفروضة وليس بزكاة عند أبي حنيفة، ولذلك قال فيه الخمس. وبعضهم عد الركاز داخلًا فيما أخرج من الأرض ولكنه يخمس، وألحق في الحكم بالغنيمة عند المالكية. ولعل المراد بما كسبتم الأموال المزكاة من العين والماشية، وبالمخرج من الأرض الحبوب والثمار المزكاة.[١]

وقد فات الشيخ قول الحنابلة وهو وجوب الزكاة في المعدن واستدلوا بتلك الآية، والذي يظهر أن من وَجَدَ مَعدِنًا في أرضه فإن عليه الزكاة؛ وأما الدولة عندما تستخرج المعادن فإنها تُنفقه في مصالح الأمة العامة.

وهذه الثروات نرى ألا تُباع كمواد خام إلا إذا تعذر استغلالها بالتصنيع، أو هي لا تُباع إلا على صورتها الأولية، ومن جميل ما صنعت الحكومة المصرية أن حولت الغاز الطبيعي من صورته الأولية الغازية إلى سائل وقامت بتصديره لأوروبا، هي صورةٌ نرجو انسحابها على سائر المواد الخام التي يُخرجها لنا الله من الأرض، لتعظيم موارد الأمة وحفظ مقدراتها ومنع حدوث خلل في أمنها الاقتصادي، فبيع كل ما يخرج من الأرض كمادة خام بسعر زهيد يُعد إسرافًا منهيًّا عنه، لأن المستورِد يحول تلك المادة الخام كسلعة؛ ويصدرها لنا بأضعاف الثمن وبالنقد الصعب، فيا عجبًا لمقاصد القرآن وكيف أنها تحقق الأمن من سائر جوانبه الظاهرة والباطنة.

أما المُنفق عليه فلنأمن من أن تصيب الفاقة الناس، وأن تدفع الفاقة بعض الأفراد للغش أو السرقة أو الحسد فقد شرع الله تبارك وتعالى الزكاة بشتى أنواعها، ونَصَّ على أصناف المُؤدى لهم الزكاة، بحيث أنه لو تم أداؤها لن نجد للجرائم المالية سبيلًا.

١ التحرير والتنوير ٣/٥٦.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ * إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠ ﴾ [1]

ولو تساءلنا متصورين تحقيق الأمن الاقتصادي؛ هل يجب توزيع الزكاة على كل الأصناف المذكورة؟

أجاب الطاهر: الذي عليه جمهور العلماء أنه لا يجب الإعطاء لجميع الأصناف، بل التوزيع موكول لاجتهاد ولاة الأمور يضعونها على حسب حاجة الأصناف وسعة الأموال، وهذا قول عمر بن الخطاب، وعلي، وحذيفة، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبي العالية، والنخعي، والحسن، ومالك، وأبي حنيفة.

وعن مالك أن ذلك مما أجمع عليه الصحابة، قال ابن عبد البر: ولا نعلم مخالفا في ذلك من الصحابة، وعن حذيفة. إنما ذكر الله هذه الأصناف لتعرف وأي صنف أعطيت منها أجزأك. قال الطبري: الصدقة لسد خلة المسلمين أو لسد خلة الإسلام، وذلك مفهوم من مآخذ القرآن في بيان الأصناف وتعدادهم. قلت وهذا الذي اختاره حذاق النظار من العلماء، مثل ابن العربي، وفخر الدين الرازي.[2]

المبحث الرابع: تأمين طرق التجارة

تأتي أهمية الطرق والاهتمام بها من قبل الحكومات والأمم على مر العصور بفعل الخدمات التي تقدمها، وبفعل التعامل التجاري ومعرفة العرب بالطرق التي ترتبط بها شبه الجزيرة العربية مع بقية الأقاليم جعل العرب المسلمين وخاصة قادة الجيوش على معرفة ودراية بالطرق التي يسلكونها أثناء قيادتهم لجيوشهم نحو تحرير العراق وبلاد الشام ومصر وأفريقيا مما سهل تفوقهم العسكري في نشر الدين الإسلامي.

---

١ سورة التوبة: آية رقم ٦٠.

٢ التحرير والتنوير ١٠/٢٣٧.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤ ﴾ [1]

قال الطاهر: ومعنى الآية تذكير قريش بنعمة الله عليهم إذ يسر لهم ما لم يتأت لغيرهم من العرب من الأمن من عدوان المعتدين وغارات المغيرين في السنة كلها، فتيسرت لهم الأسفار في بلاد العرب من جنوبها إلى شمالها، ولاذ بهم أصحاب الحاجات يسافرون معهم، وأصحاب التجارات يحملونهم سلعهم، وصارت مكة وسطا تجلب إليها السلع من جميع البلاد العربية فتوزع إلى طالبيها في بقية البلاد، فاستغنى أهل مكة بالتجارة إذ لم يكونوا أهل زرع ولا ضرع، فذلك وجه تعليل الأمر بتوحيدهم الله بخصوص نعمة هذا الإيلاف.[2]

وفي السورة من المقاصد الإشارة إلى أهمية طرق التجارة وضرورة تأمينها؛ لأن من لازم تحقيق المكاسب التجارية الأمن على الأرزاق المحمولة من قطرٍ إلى آخر، ولو لم يأمن التجار على أقواتهم لما حملوها، والطرق هنا تشمل البرية منها والبحرية وكذا الجوية، بتأمين المَرَافِئ، وتهيئة الأرصفة وتقديم خدمات الشحن والتفريغ وما يلزم مما هو معلوم في علم اللوجستيات.

وخير مثال على ذلك قناة السويس بفرعها الجديد الذي أدى زيادة عدد السفن بشكل أحدث طفرة في إيراداتها للأمة؛ مقابل تأمين السفن أثناء العبور، والقناة هي جزءٌ من مشروع أكبر يشمل نصف الكرة الأرضية تقريبًا ألا وهومشروع طريق الحرير؛ ذلكم المشروع الصيني العملاق الذي يحقق توازن في الاقتصاد بين الشرق والغرب.

والمعنى في الآية أن قريشًا أُمرت أن تعبد الله تعالى وتفرده بالتوحيد إلَّم يكن لشيءٍ من النِّعم التي لا تُعد ولا تُحصى؛ فليكن لنعمة الأمن في الطريق وتحويل مكة مركزًا للتجارة ومركزًا للأمن في الأشهر الحُرُم وغيرها، لما جعل الله للبلد الحرام من مكانة قدُسية لايجوز انتهاكها، ولما كان من معاهدات لقريش وهي تمر على الأقطار شمالًا وجنوبًا صيفًا وشتاءً، وكان الناس بعهد أمان قريش ينتفعون برواج تجارتهم لأمنهم على أنفسهم وأقواتهم وأرزاقهم، فكما ألفتم هذه الرحلات عليكم بإلف عبادة الله جل شأنه وتقدست أسماؤه.

---

١ سورة قريش: الآيات من ١- ٤.

٢التحرير والتنوير ٥٥٩-٥٦٠/٣٠.

ولا أَدَلَّ على ضرورة تأمين طرق التجارة من العقوبة المُغَلَّظَة في حَقِّ مَنْ أَخَلَ بذلك الأمن، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ ﴾ [1]

في رواية للطبري: نزلت في قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين المسلمين عهد فنقضوه وقطعوا السبيل وأفسدوا في الأرض. رواه عن ابن عباس والضحاك، هذا بالإضافة لقصة العرنيين المشهورة.[2]

فهذه العقوبة الرادعة في حق قُطَّاعِ الطريق تُبَيَن مكانة أمن الطريق في الإسلام، فالطرق تمثل بنية تحية لمناخ اقتصادي مزدهر، وفي حال انعدام الأمن على الطريق يستحيل قفرًا من القفار المهجورة، أما في حال العناية به يتحول لقاعدة آمنة من قواعد التبادل التجاري، ومورد هام من موارد الدولة، وصورةٍ من صور القدرة على تحقيق النمو الاقتصادي.

لذا كان هناك بعض المؤشرات المشتقة بياناتها من شبكة الطرق في المقارنة بين اقتصاديات الدول الغنية والدول الفقيرة، ومن هذه المؤشرات نصيب الفرد من الطرق، ونصيب الكيلومتر المربع من المساحة الكلية للقطر من الطرق، ونسبة ما ينفق من أعمال الصيانة إلى الدخل القومي.[3]

ومن أهم انجازات الحكومة المصرية الحالية التوسع في إنشاء شبكة طرق حديثة ونموذجية، واستحداث المحاور المحيطة بالعاصمة، فضلًا عن الكباري العلوية على نهر النيل بفاصل خمسة وعشرين كيلومتر بين كل محور من الشمال إلى الجنوب لربط شرق البلاد بغربها، وكذا طريق الإسكندرية كيبتاون المزمع إنهاؤه قريبًا لتعزيز الشراكة التجارية الإفريقية،

---

١ سورة المائدة: آية رقم ٣٣.

٢ جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق، ص ٢٤٣، ج١٠.

٣ شبكة الطرق البرية والموارد المالية، عبد الرازق حسن، مركز دراسات الوحدة العربية، ندوة المواصلات في الوطن العربي في السلم والحرب، بغداد: مركز دراسات الوحدة العربية ونقابة المهندسين العراقيين ونقابة المعلمين في الجمهورية العراقية، ٦٥ – ٨٨.

فضلًا عن جسر الملك سلمان لربط جمهورية مصر العربية بالمملكة العربية السعودية برًا، وتعزيز أواصر العلاقة بين البلدين الشقيقن والشعبين المتحابين، ومن ثم تحقيق الوحدة بين أبناء الأمة.

وهنا لابد من الإشارة إلى سلوكٍ آخر يُخلُّ بأمن الطريق؛ ألا وهو استغلال بعض الباعة أجزاء من الطريق في عرض بضائعهم ضمًّا لمحلاتهم أو اتخاذ أجزاء من الطريق وافتراشها لبيع سلعهم، وهذا اعتداءٌ مَنهيٌّ عنه، والله لا يحب المعتدين.

المبحث الخامس: المقاصد القرآنية وإدارة الأزمات

تتعدد صور وأنواع الأزمات بحسب المناط الدائرة غي فلكه، فهناك أزمات سياسية واجتماعية واقتصادية وصحية...إلخ ما قد يواجهه المجتمع بشتى طبقاته، والذي نحن الآن بصدده هو الإشارة للأزمات الاقتصادية وطرق إدارتها من خلال مقاصد القرآن الكريم.

أولًا:الإشارة إلى نوع الأزمة:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾[1]

في تلكم الآية العظيمة بيان نطاق الأزمة وكونها أزمة اقتصادية، لأن من أهم عوامل إدارة الأزمات تحديد نطاقها والوقوف على نوعها وجوانبها؛ حيث أن الإحاطة بتلك المعلومات الأولية هو مفتاح إدارة الأزمة، وكذا تصنيف الأزمة من حيث كونها اقتصادية أم سياسية أم اجتماعية يفضي إلى اختيار جهة الاستشارة الصحيحة، فمن يصلح للسياسة قد لا يصلح للاقتصاد.

ثانيًا: الإشارة إلى محدودية زمن الأزمة:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[1]

[1] سورة يوسف: آية رقم ٤٣.

قال الطاهر: عبر الرؤيا بجميع ما دلت عليه، فالبقرات لسنين الزراعة، لأن البقرة تتخذ للإثمار، والسمن رمز للخصب، والعجف رمز للقحط، والسنبلات رمز للأقوات، فالسنبلات الخضر رمز لطعام ينتفع به، وكونها سبعًا رمز للانتفاع به في السبع السنين، فكل سنبلة رمز لطعام سنة، فذلك يقتاتونه في تلك السنين جديدًا.

والسنبلات اليابسات رمزٌ لما يُدخر، وكونها سبعًا رمز لادخارها في سبع سنين لأن البقرات العجاف أكلت البقرات السمان، وتأويل ذلك: أن سني الجدب أتت على ما أثمرته سنو الخصب.[٢]

فهذه سبع سنين مدة الأزمة، ففيه الإشارة إلى محدوديتها وإن طالت نسبيًّا، فهذا يعقد الأمل في القلوب على قرب انفراج الأزمة، يُضاف إلى ذلك أن المعرفة المسبقة بالحوادث المتشابه يضعها في تصنيف مُقارب للسوابق، بحيث نضع حلول مُقاربة للحوادث السابقة المماثلة للأزمة النازلة، ويعطي مؤشرات على الأضرار المُتوقعة كمًّا وكيفًا، فينتفي الهلع والشك وحالات عدم اليقين المصاحبة للأزمات ويعطي الثقة في القيادة التي تدير الأزمة لأن تلك النوازل يكثر فيها الإشاعات وتكون الأمة عُرضة للحرب النفسية والاستقطاب بين أطرافٍ شتى لو لم تواجه الأزمة من ظهورها بالحزم واليقين والثبات.

ثالثًا: الإشارة إلى صناديق إدارة الأزمات:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[٣]

قال الطاهر: مزج تعبيره بإرشادٍ جليلٍ لأحوال التموين والادخار لمصلحة الأمة، وهو منام حكمته كانت رؤيا الملك لطفًا من الله بالأمة التي آوت يوسف- عليه السلام-، ووحيا أوحاه الله إلى يوسف- عليه السلام- بواسطة رؤيا الملك، كما أوحى إلى سليمان- عليه السلام- بواسطة الطير. ولعل الملك قد استعد للصلاح والإيمان. كان ما أشار به يوسف-

---

١ سورة يوسف: الآيات ٤٧ - ٤٩

٢ التحرير والتنوير ١٢/٢٨٦.

٣ سورة يوسف: جزء من الآية ٤٧.

عليه السلام- على الملك من الادخار تمهيدًا لشرع ادخار الأقوات للتموين، كما كان الوفاء في الكيل والميزان ابتداء دعوة شعيب- عليه السلام-، وأشار إلى إبقاء ما فضل عن أقواتهم في سنبله ليكون أسلم له من إصابة السوس الذي يصيب الحَبَّ إذا تراكم بعضه على بعضٍ فإذا كان في سنبله دفع عنه السوس، وأشار عليهم بتقليل ما يأكلون في سنوات الخصب لادخار ما فضل عن ذلك لزمن الشدة.[١]

يدلف بنا ما سطره الطاهر بن عاشور هاهنا إلى فكرتين رئيستين في المحاور الاستراتيجية في الإدارة عمومًا وإدارة الأزمات خصوصًا.

الأولى: هي كيفية ادخار الأقوات والحفاظ عليها من أن يطالها ما يفسدها من آفات من سوء التخزين، فرأينا الصوامع تُبنى للحفاظ على الحبوب، والثلاجات أيضًا، ففي الآية الكريمة الإشارة إلى أصول الادخار.

الثانية: أن الادخار لمواجهة الحاجة في الأيام الصعاب هو مبدأ قامت عليه فكرة إنشاء صناديق لمواجهة الأزمات المالية وغيرها، ولعل صندوق تحيا مصر لهو خير مثال في عصرنا الحالي كفكرة يتم من خلالها مواجهة الغلاء من خلال تقديم المعونات الازمة للأسر والقرى الأشد احتياجًا للأموال والأقوات.

١ التحرير والتنوير ١٢/٢٨٧.

المراجع :

١ _ القرآن الكريم .

٢ _ الجامع لأحكام القرآن الكريم : لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ / دار الكتاب العربي الطبعة الثالثة .

٣ _ تفسير أبي الفداء إسماعيل بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ مطبعة دار إحياء التراث العربي / ١٣٨٨ هـ

٤ _ التفسير الكبير للإمام محمد الرازي : المتوفي سنة ٦٠٦ طبع دار الكتب العلمية طهران .

٥ _ الكشاف لمحمود بن عمر الزمخشري المتوفي سنة ٥٢٨هـ مطبعة الاستقامة الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ بتصحيح مصطفى حسين أحمد .

٦ _ كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي المتوفى سنة ٧٩٢هـ مطبعة دار الفكر

٧ _ فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني : المتوفي سنة ١٢٥٠هـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي / الثالثة ١٣٨٣هـ .

٨ _ تفسير المنار لمحمد رشيد رضا الطبعة الثانية الناشر دار المعرفة بيروت .

٩ _ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي مطبعة المدني .

١٠ _ روائع البيان تفسير آيات الأحكام لمحمد علي الصابوني / طبع منشورات مكتبة الغزالي الطبعة الثالثة ١٤٠٠ هـ .